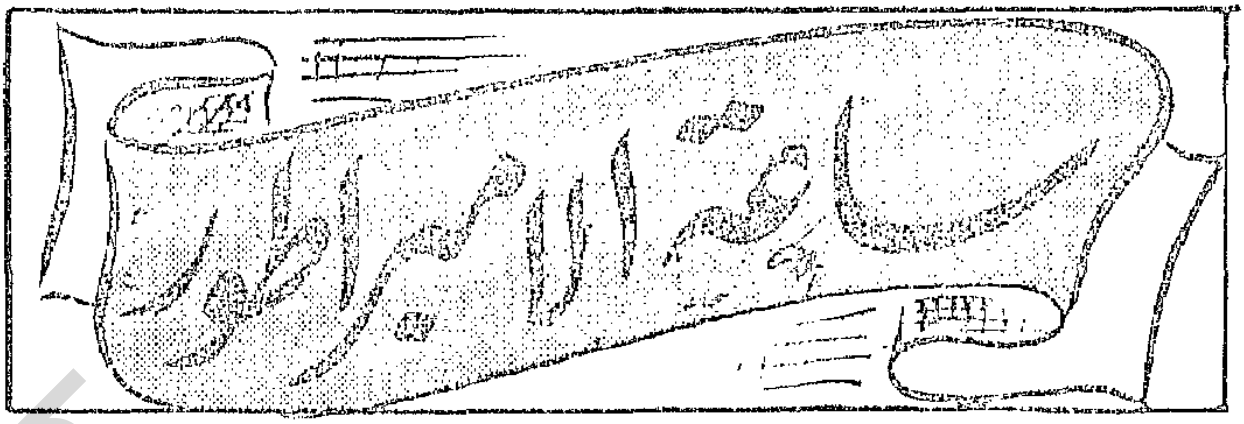

كانت الشمس الجانحة الى العروب تجمع أشعتها المبعثرة في السماء ، وتنزلق ببطء وراء التلال الغربية في وادي الملوك ، فتكلل رباها بتاج من العقيق .

ولكني كنت في شاغل عن هذا الموكب الفخم بالتأمل في تمثال رمسيس الثاني الصغير الذي اشتريته من غلام يتجر في العاديات . على انه تحفة اصيلة من تحف الاوائل ، فأكد لي صاحبي مفتش الآثار وهو يضحك أنه لا يعدو أن يكون قطعة مخلقة من الطين المحروق ، لا تمت حتى باشبه لوجه رمسيس ! . .

ثم استطرد متهكما بعد لحظة .

كم تدفع في ساعة نابليون ؟!

فأجبت والغيظ يملأ فؤادي .

ولا بارة !!

فقال بدهشة . ساعة نابليون !!

قلت « ولو كانت ساعة شرلمان ! » فقال ضاحكا :

اني اعرف رجلا سواك دفع فيها ثمانين جنيها وكان يطمع في أن يبيعها بمائتين وخمسين . .

وهالتني فداحة الثمن وقلت :

كان اولى بهذا المغفل ان يشتري بهذا المبلغ ساعة جامعة فؤاد الاول ، يذكرها صوتها بمضي الساعات في حياته الفارغة !

فأخرج الرجل ساعة كبيرة الحجم ، غريبة الشكل وقال لصاحب المطعم . اليك ساعتي فارتهنها حتى أعود اليك غدا بالنقود

قال « لو وقعت لى ساعة نابليون لاشتريتها بالف من الجنيهات وكنت حريا ان ابيعها بمائة ألف .

قلت « ولم لم تشترها منه بمائتين وخمسين ؟

قال — ان لها حكاية ..

كان لى صاحب يدير مطعما للكباب بشارع محمد على بالقاهرة وانى المطعم ذات يوم استاذ مصمم فاكل ماشاء ، وعند ما جاء دور الدفع فتش ، فلم يجد حافظة نقوده ، فاسقط فى يده . وتضرجت وجنتاه بالحمرة ، وراى خادم المطعم يرقبه بعين ساخرة ، وكانه يقول له « حذار » لاتحاول .. وادفع بالتى هى احسن ! .. وخشى الفضيحة ، فذهب الى صاحب المطعم ، واسر اليه والخجل يكاد يقتله انه نسى نقوده ..

وراى صاحب المطعم على وجهه وثيابه مظاهر النعمة والجاه ، فطيب خاطره ، وامهله فى الدفع ماشاء ، فاخرج الرجل من جيبه ساعة كبيرة الحجم نوعا ، غريبة الشكل ، ذات غطائين من الفضة المزركشة ، معلقة فى سلسلة من المعدن الرخيص ، وقال لصاحب المطعم « اليك ساعتى فارتهنها عندك حتى اعود اليك غدا بالنقود ...

وخجل صاحب المطعم ، ورآها كبيرة ان ياخذ رهنا على عشرة قروش من مثل هذا الرجل الوجيه فأبى أن ياخذ الساعة ، فالح عليه الرجل ، وحلف . وأقسم عليه بالله أن يستبقيها حتى يذهب لشأنه مستريح الضمير

واضطر صاحب المطعم ان ياخذ الساعة ، وهو يبدى آله ويستغفر الله ..

وقال الرجل ببساطة .

كل ما أرجوه أن تحافظ عليها ، فهى ذخيرة من جدى رحمة الله عليه .. .

وفى مساء اليوم نفسه قدم الى المطعم عميل آخر ، وكان فى هذه المرة مطربشا ، وتبدو عليه هو الآخر سمات الوجاهة ، فاكل ، ثم آثر ان يدفع ماعليه لصاحب المطعم ، فقدم له جنيها وبينما صاحب المطعم يفتح درجه ليخرج له باقى نقوده ، لمحت عين العميل الساعة ، فأطال النظر اليها ملهوفا ، وبدا على وجهه انه شده لمرآها ، وقال لصاحب المطعم فى صوت مشوب بالرجاء والتوسل .

هل استطيع ان ارى هذه الساعة ؟ ..

قال صاحب المطعم - انها ليست ملكى

قال - سالقى عليها نظرة ولن أمسها بسوء ...

فاسلمها اليه ، وراح هذا يقلبها بين يديه ، ويفتح غطاءها ويتامل فيها ، ثم فتح غطاءها الخلفى ، فاخذ مفتاحا دقيقا كان معلقا فى السلسلة فوضعه فى احد ثقبين كانا مختفيين وراء الغطاء ثم أداره ، وتسمع الى الساعة فاذا هى دائرة .. وهو فى كل حركة ياتيها يتفوه بكلمة تدل على الدهش والاعجاب ...

وراب صاحب المطعم امره فقال له - هل أنت صانع ساعات ؟

قال - كلا . . ولكن هذه لقطة .. انها كنز ثمين

ثم اخرج عدسة من جيبه وراح يفحص باطن الغطاء ويتامل فى كل نواحيه ، حتى اذا وجد شيئا كان يبحث عنه ، صاح صيحة ابتهاج وقال - لقد صدق ظنى .. هذه ساعة الـ ...

وكانما ندم على الافراط ، فأمسك وعض شفته السفلى ثم سال صاحب المطعم .

هل يعرف صاحب هذه الساعة اية تحفة يحمل ؟ ..

قال صاحب المطعم وقد أثارت تصرفات الرجل عجبه .

لاادرى ولكنه يقول انه ورثها عن جده ، ولو كانت ذات قيمة خاصة لديه لما ارتهنها على عشرة قروش قال العميل - سافضى اليك بسر .. هذه ساعة السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية

أيام الحملة الفرنسية على مصر ؛ وهى هدية له من نابليون ، ولا بد ان هذا الرجل من احفاد السيد محمد كريم .. انظر خلال هذه العدسة .. . ماذا ترى فيها ؟؟

ونظر صاحب المطعم فى العدسة فاذا تحتها نقش تبين فيه حرفى ن . ب ، وتحتهما بالفرنسية كلمة امبراطور

وقال الرجل بحماسة — هل رايت ؟ .. ان مصلحة الآثار تبحث عن هذه الساعة منذ زمن طويل

قال صاحب المطعم : ومن هو السيد محمد كريم هذا ؟

قال الرجل :

انه أول زعيم من زعماء الثورة القومية المصرية . . لقد كانت مصر تغط فى سباتها العميق تحت حكم الاتراك والمماليك . وجاء نابليون الى مصر ، يريد ان يعيد سيرة الاسكندر فى الشرق فارسى بجيوشه الجرارة على مقربة من الاسكندرية

واستبسلت المدينة فى الدفاع تحت قيادة حاكمها السيد محمد كريم ، ولكنها اضطرت الى الاستسلام فى النهاية ، بعد ان جرح كليبر أكبر قواد نابليون ، وأصيب الجنرال مينو بضربة حجر أسقطته من أعلى سور المدينة بعد ان نجح فى اقتحامه بجنوده وقتل وجرح كثير من ضباط وقواد ، وكاد نابليون نفسه يصاب برصاصة من يد امرأة وهو يدخل المدينة ، لولا ان الاقدار كانت تدخر له مصيرا آخر فى منفاه ..

وعلى الرغم من استسلام المدينة فقد أبى السيد محمد كريم ان يلقى سلاحه ، واعتصم بقلعة قايتباى ، وظل يناوىء الفرنسيين حتى آخر رصاصة ثم راى المقاومة عبثا لا يجدى فكف عن القتال ...

وتلقاه نابليون لقاء كريما ، ورد عليه سلاحه ، وقال له فى مجلس من اعيان المدينة — « لقد اخذتك والسلاح فى يدك ، وكان لى

أن أعاملك معاملة الاسير ، ولكنك استبسلت فى الدفاع ، والشجاعة والشرف متلازمان ، لذلك اعيد اليك سلاحك ، وآمل ان تبدى للجمهورية الفرنسية من الاخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة »

ثم خلع عليه خلعة سنية وأهداه الساعة ، وابقاه حاكما على الاسكندرية . . .

ولكن هذه الحفاوة من نابليون لم تصرف السيد محمد كريم عن السعى لتحرير بلاده ، فابدى الخضوع فى الظاهر ، وطوى ضلوعه على بغض المستعمرين ، وراح يؤلب قوى المقاومة فى البلاد ، ويوقظ فى جوانح اهل المدينة وما جاورها روح السخط حتى ارتاب نابليون فى اخلاصه ، فأمر باعدامه رميا بالرصاص . .

ومست قصة السيد محمد كريم العاطفة الوطنية فى قلب صاحب المطعم فترحم عليه بخشوع وأخرجه الرجل من الخيال الذى كان سابحا فيه فقال له :

هل تستطيع ان تقدم لى خدمة

قال — ان كان ذلك فى مقدورى . .

قال — اعرض على صاحب الساعة ان يبيعها . . وانا مستعد ان أدفع فيها مائتى جنيه . .

وقال صاحب المطعم مشدوها

— مائتى جنيه !!

قال — نعم . . مائتى جنيه ، وانيك مامعى عربونا

واخرج من جيبه عشرين جنيها ووضعها فى يد صاحب المطعم

قال — واذا لم يقبل ؟ . .

وفكر العميل قليلا ثم قال مترددا .

— زدها الى مائتين وخمسين . . هذا كل ما استطيع الحصول عليه

ووجد صاحب المطعم انها عملية سليمة ، وخدمة يؤديها للطرفين ، ولذكرى البطل الوطنى السيد محمد كريم ، ولواحد من احفاده . .

ولكن صاحب المطعم عند ما أوى الى فراشه هذه الليلة لم ينم

فقد أخذ يقلب المسألة على شتى وجوهها ، وعز عليه أن يخرج من الصفقة بلا مكسب .. ان له حق السمسرة على الاقل ..

ثم اخذت المطامع تكبر فى نفسه وتترعرع ، فوسوست اليه ان صاحب الساعة لايدرى من امرها شيئا ؛ فلماذا لو قال له ان الساعة سرقت أو ضاعت ، وعوضه عنها بالقليل ؟

ولكن هذا الخاطر وخزه فى امانته ، وكرامته الوطنية ، فاستغفر الله واستعاذ من الشيطان وقال لنفسه خير من هذا واكرم ان اشترى الساعة لحسابى من صاحبها ، ثم ابيعها كما أشاء . . . ولماذا لا اجابها راسا لى مصلحة الآثار .. أكبر الظن ان الرجل سيكسب فيها عدة مئات ..

وعاد الى الساعة ، التى أتى بها معه خوفا عليها من الضياع ، فاخذ يقلبها ويضعها تحت عينه تارة ، وعلى اذنه اخرى ، فاستغرب أن تظل ساعة نابليون دائرة من سنة ١٧٩٨ حتى الان ، وبرغم مالابد أن يكون مر عليها من المحن والاحداث ، ولكنه قال لنفسه أن الساعات كالبشر ، والكائن الحى الذى يقضى نحبه فى المهد قد يعمر مائة عام واهتز قلبه اعجابا بمقدرة الاوائل فى صناعة الساعات ..

قال صديقى مفتش الآثار :

ـ وشاءت المصادفة ان اتناول غدائى فى اليوم التالى بهذا المطعم فاستقبلنى صاحبه بحفاوة .

ثم انتحى بى جانبا ، وقال لى لقد جئت فى وقتك .. ان معى كنزا .

قلت ـ ما هو ..

قال ـ ساعة نابليون

وروى لى القصة بحذافيرها وقال : لقد نجحت فى شراء

الساعة من صـــاحبها بعد ان تحققت منه انه فى الواقع حفيد السيد محمد كريم ..

قلت ــ وكم دفعت فيها

قال ــ مائة جنيه فقط ، وانا مخـير لان بين ان اكسب من المشترى الذى انتظره بين لحظة واخرى مائة وخمسين جنيها او ابيع الساعة لمصلحة الاثار ، وعليك اعتمد حينئذ فى الحصول على اكبر ربح مستطاع ..

قلت ــ واين الساعة ؟

فأخرجها من جيبه بعناية ، فأخذتها وفحصتها هنيهة ، وقلت له بهدوء :

ان هذا المشترى لن يجىء !!

فقال صاحب المطعم ببلاهة :

ــ كيف وله عندى عشرون جنيها ؟

قلت ــ عظم الله اجرك فى مالك .. انك ضحية محتالين تواطآ عليك ، فدفعا لك عشرين واخذا مائة !! . ان هذه الساعة قد تكون ساعة اى مخلوق فى الوجود الا نابليون !!

وكاد الرجل يصعق واشار الى الحروف المنقوشة على باطن غطاء الساعة ولا يكاد ينطق من هول المصاب .. وقلت له :

ــ ولو .. ان هذه الاحرف نفسها هى اكبر دليل على الاحتيال .. ان نابليون عندما غزا مصر ، واهدى ما اهدى الى السيد محمد كريم ، لم يكن امبراطورا بعد ، ولكنه كان قائدا اعلى للجيش الفرنسى ، وما كان من المعقول ان يتنبأ يومئذ بانه سيصبح الامبراطور نابليون !!

* * *

قال صديقى مفتش الاثار ، وهو يستأذن فى القيام ... ان سوق العاديات يا صديقى سوق طائشة لعوب قد يرخص فيها اللؤلؤ فيباع اصدافا ، ويغلو الزجاج فيباع كالماس !!